الفصل الخامس

التكوين المسيحى لبولس

(ا) كيف ربى بولس تربية مسيحية – صعوبة تحديد ابعاد هذه التربية – كيف كانت معاملته القاسية للمؤمنين أول تمهيد لإيمانه – لم يكن للحواريين أثر على بولس ، ولكنه وقع تحت تأثير مجتمع مشبع بالروح اليونانية .

(ب) إيمان هذا المجتمع اهيلينستى : كيف انتشر خارج القدس وانتقلت معه صورة إيمان الحواريين – كنيسة أنطاكيا : أهميتها ، روحها ، مفهوم المسيحية لديها ، فكرة « السيد عيسى » ، دورها عند بولس ، الأصول اليونانية فيها – عبادة « السيد » ووجوده فى مجتمع بولس – عقيدة « الإله المنقذ » فى المجتمع اهيلينستى الأول وعند بولس .

(جـ) الأدوار التى نرجح أن بولس مر بها فى تحوله إلى المسيحية – كيف تصور بولس نفسه هذا التحول – الصورة التى نرجح أنها تطابق ما كان من حقيقة أمره – كيف نبعت رسالة بولس واتجاهاتها من هذا التحول .

(١)

من الخطأ برغم ما تقدم من حديثنا ، أن ننسب إلى بولس وحده ذلك المجهود الضخم الذى انتهى إلى غرس دعوة الحواريين فى ربوع العالم الهيلينستى . ونحن نكرر القول بأن أصالته ليست محل شك لدينا ، وأننا لا نجد مبالغة فى وصفها بالأصالة العبقرية : فقليل من بنى الإنسان من امتازوا بمثل ما امتاز به من روح وثابة ملتهبة ، وعشق عنيف للعمل ، وإحساس حاد بكل ما يقتضيه هذا العمل من أوجه نشاط ، ثم من قدرة خارقة على تطويع الآراء والمذاهب وتحويرها لخدمة أغراضه ، كل ذلك فى إطار عام يمتاز بالإبداع والخصوبة – تصوغه موهبته التعبيرية ، وإن كان من الواضح أن هذه الموهبة لديه تفتقر أحياناً إلى التكامل والانسجام بين عناصرها المختلفة. ولكنه مع ذلك لم يخترع كل ما قاله ، وإنما وقع تحت تأثيرات معينة حددت معالم الطريق فى تحوله الدينى ، وجعلته ينقلب فجأة من متعصب للشريعة اليهودية إلى نصير لا يقهر للسيد المسيح . ولقد تلقى تربية مسيحية . ونعنى بذلك أنه اتصل بأشخاص معينين قدموا إليه صورة معينة لشخصية عيسى ولدعوته ، وأنه اتخذ هذه الصورة المعينة أساساً لما أسماه بـ « إنجيله » . فهل اكتفى بنقل ما أخذه عنهم فى رسائله وأحاديثه ، أو طوّره حسب ما رأى وأحس وقدر ؟ وإن أخذنا بالرأى الثانى ، فما أبعاد التطوير الذى أدخله على الصورة الأولى ؟ إنه من العسير علينا أن نجيب عن هذه التساؤلات فى شىء من الدقة ، ولكننا نستطيع على الأقل ، أن نحصر مجالاتها وأن نصل إلى بعض الاحتمالات ولم يعد فى الإمكان اليوم أن

نحدد تلك الصلات التى قامت بين بولس وبين أتباع عيسى قبل الأزمة التى جعلت من الأول أكثر المؤمنين حماسة . ولقد ثار جدل طويل لم ينته إلى نتيجة حول التأكد من أن بولس « رأى » عيسى . والقضية التى ثبتت لنا على أى حال هى أنه : لم « يعرفه »[1] . وإن النصوص التى تحوز أكبر قدر من الثقة فى هذا المجال . وهى رسائل بولس نفسه ، تقدمه لنا على أنه كان من مضطهدى « كنيسة الله » قبل أن تحدث معجزة طريق دمشق . وإن تفاصيل ما ترويه لنا « أعمال الرسل » (٧/٥٨ ، ٨/١ - ٣ ، ٩/١ - ٢) عن عنفه فى الشر لتبعث على الشك ، ويبدو لنا من المرجح أن الغرض منها لم يكن إلا إبراز تحوله المفاجئ عن هذه العداوة الشديدة فى صورة براقة . ولكنه بقى من الثابت لدينا أنه بدأ حياته بالكراهية لهؤلاء الحمقى الذين اتبعوا رجل الجليل المصلوب . وأنه أوضح لهم كراهيته هذه بالقول والعمل قدر ما استطاع . إنه يكره هذا المجتمع المسيحى الأول ، ولكنه يتصل به ويتعرف عليه ، فقد يحكم بالحماقة على إيمان هؤلاء الرجال الذين كانوا محل اضطهاده ، ويرى هزالا شديداً فى آمالهم ، ولكن عوامل أخرى تتفاعل فى الوقت نفسه بصورة غامضة فى أعماق فكره ، فتقارن بين بدع أهل الجليل وادعاءاتهم ، وبين مزاعم دعاة الاتجاهات التأليفية - من مشركين أو يهود - فى طرسوس أو فى انطاكية ، تلك المزاعم التى لم يصدق بها أكثر مما صدق بدعوة أصحاب عيسى . ولسوف ينبثق النور بالنسبة إليه من المقارنة ومن التقريب ثم من تأويله للأمر على أساس تقويمه للدين اليهودى .

والشىء الذى يبدو لنا غير قابل للجدل هو : أن تطور بولس نحو المسيحية لم

---

(١) يدور الجدل كله حول الكلمات التالية من الرسالة الثانية إلى الكورنثيين (٥ / ١٦) « إن كنا قد عرفنا المسيح بالجسد ، فنحن اليوم لم نعد نعرفه » .

يتم بالقدس وأن مذهبه لم ينشأ من الاتصال بالحواريين الاثنى عشر. ولم يخرج الكاتب الألمانى «هايتمولير» عن جادة الحق عندما ماكتب فى مقال عن بولس وعلاقاته بعيسى : «إن بولس لم يتأثر بعيسى عن طريق المجتمع المسيحى الأول ، ولكن الأثر انتقل إليه بواسطة حلقة أخرى من حلقات سلسلة المتوارثات التى يمكن ربطها كما يلى : عيسى ، المسيحى الأول ، المسيحية الهيلينستية ، بولس» .

ولم يكن بولس بمؤسس المجتمع المسيحى الأول فى المهجر. و«أعمال الرسل» (١٩/١١) تشير إلى إقامة بعض الطوائف من الذين اعتنقوا دين عيسى بين الجاليات اليهودية بفينيقيا وقبرص وانطاكيا . ولا تدين هذه الطوائف بشىء لبولس . كذلك لم يكن له أى فضل فى تأسيس الكنيسة الأولى بروما . ومن المرجح أن تحول بولس سوف يبدو لنا أقل غرابة لو تعرفنا ، بصورة أكثر دقة ، على هذه المجتمعات المسيحية الأولى فى بلاد المشركين ، تلك المجتمعات التى كانت عقيدتها اليهودية دائماً أكثر مرونة من عقيدة أهل فلسطين وأكثر اتصالا – بل قوية الاتصال – بتيارات التأليف بين الأديان ؛ ولا نشك فى أنها طورت من ادعاءات أصحاب عيسى قبل اعتناقها . ولكننا للأسف لا نجد أمامنا إلا طريقاً واحداً ، هو محاولة «تخمين» وترجيح بعض ماكانت تؤمن به هذه المجتمعات «اليونانية» الأولى ، وذلك من خلال نصوص «أعمال الرسل» المشكوك فيها ، وإشارات بولس نفسه ، وإننا لنعترف بأن ما تجمع لدينا من معلومات ليس بالشىء الكثير[1] .

---

(١) يعتبر كتاب البحاثة بوسيه عن المسيح ، المطبوع بجوتينجن عام ١٩١٣ ، أهم مرجع فيما يتعلق بهذه المشكلة ، وبخاصة منه الفصلان الثالث والرابع .

(ب)

كانت الجماعة الأولى من المؤمنين بعيسى فى القدس جماعة يهودية صرفة . وليس لدينا ما يدعو إلى الشك فيما ترويه « أعمال الرسل » بهذا الشأن . وكان أعضاء هذه الجماعة لا يفترقون عن اليهود الآخرين الأتقياء إلا فى إيمانهم بأن عيسى الناصرى قد شرفه الله فجعل منه مسحيا ، وأنه قد تحققت به الآمال . ولا يمكننا أن نتصور أنهم اتجهوا من أنفسهم إلى تبشير المشركين بعقيدتهم فلم يكن ذلك بالنسبة إليهم عملا ذا معنى . ولعل أقصى ما كانوا يصلون إليه فى هذا الاتجاه هو الترحيب ببعض المتلمذين على اليهود ، على غرار ما فعله بطرس إذ نراه – فى الفصل العاشر من « أعمال الرسل » – يقوم بتعميد الجندى كورنيليوس الذى كان من « المتقين الله » ، ولا نجد مغزى تاريخيًّا آخر للفصل المذكور ، هذا إذا ما فرضنا أن القصة التى يروبها تخرج بعض الشىء عن حدود الأساطير ، وقد شك أناس من قبل فى أمرها . إلا أن هذه الجماعة الأولى من أصحاب عيسى فقدت ، فى سرعة سريعة ودون أن تسعى إلى ذلك ، صفاتها كطائفة يهودية خالصة ، أو – على الأقل – كطائفة فلسطينية شبيهة بباقى الطوائف اليهودية فى البلاد ؛ فقدت هذه الصفات بحكم العوامل الخارجية القاهرة : ففى أعقاب إنشائها ، دخل عليها عنصر أجنبى غريب عن روحها الأساسية ، عنصر الأتباع الجدد الذين تسميهم مجموعة « أعمال الرسل » بـ « الهيلينستيين » .

وكان هؤلاء ، فى غالب الظن ، من اليهود الذين أقاموا زمناً طويلا بمختلف البلاد اليونانية ، ثم عادوا إلى وطنهم ليعيشوا فيه ما بقى لهم من عمر ، وكانوا أيضاً ، وعلى الأخص من يهود المهجر الذين يتوافدون إلى القدس فى

الأعياد الكبرى والمواسم ، وقد امتازوا جميعاً بروح أكثر مرونة وتقبلا للتجديدات من إخوانهم الفلسطينيين : فلا غرابة إذن فى أن يكون عدد معين منهم قد استمع إلى أحاديث أصحاب عيسى وآمن بدعوتهم . ولكنهم عندما اعتنقوا الإيمان بعيسى المسيح ، لم يتخلوا من أجل ذلك عن روحهم المرنة المجددة ، ولعلنا نرى فى هذا الأمر الأسباب الأولى للخلافات التى لم تلبث أن نشبت فى أحضان الجماعة .

وليس من مهمتنا سرد هذه الخلافات ، والكثير من جوانبها على أى حال يبدو لنا غامضاً أو مجهولا[1] ، إلا أنه لن يكون من جزاف القول إرجاعها إلى التساهل الفكرى الذى أبداه هؤلاء الهيلينستيون أول الأمر فى موقفهم من الشريعة اليهودية ومن تقديس « المعبد الأكبر » ثم إلى النزعة التى كان لابد لها أن تصاحب هذا الموقف وتنمو معه نحو إعمال الفكر والمنطق فى شخصية عيسى ورسالته على مدى أبعد مما كان يتصوره أصحاب عيسى أنفسهم . ونرجح أن تلك ظاهرة للموقف الذى حاولنا فيما سبق أن نحدده : الموقف العقلى والعاطفى ليهود المهجر تجاه مزاعم الحواريين . وكانت النتيجة أن غضبت السلطات اليهودية على هؤلاء الهيلينستيين ، فاضطهدتهم وطردتهم من المدينة وبقى بها الحواريون ، مما يدل على أن فريق الحواريين لم يكن يفكر كما فكر الهيلينستيون ولم يكن متضامناً معهم .

ومن المرجح أن « الهيلينستيين » الذين طردوا أو هربوا من القدس كانوا أول المبشرين فى بلاد الوثنيين ، وأعنى بذلك أنهم اتجهوا بعد تركهم القدس إلى المجتمعات اليهودية القائمة فى ممالك الشرك ، تلك المجتمعات التى كانت – كما

(١) تراجع فى ذلك مجموعة « أعمال الرسل » .

سبق أن بينا – تضم إلى جانب اليهود الحقيقيين طوائف من المتلمذين عليهم قد تقربوا قليلا أو كثيراً إلى اليهودية ولكنهم ظلوا على صلتهم الدائمة بعالم المشركين. وإننا لنلمح من خلال النصوص بعض الجماعات التى أقامتها تلك الدعاية التبشيرية الأولى فى قبرص وفينيقيا. بيد أن الحادث الأساسى الذى نبع عن ذلك هو: مولد كنيسة أنطاكيا. ورينان على حق عندما يكتب[1]: «إن نقطة البدء للكنيسة التى جذبت المشركين، ومركز التبشير المسيحى الأول، كانا فى أنطاكيا. هناك، ولأول مرة، أنشئت كنيسة مسيحية تخلصت من صلاتها باليهودية، وهناك تأسست الدعوة التبشيرية الكبرى فى عهد الحواريين، وهناك كذلك تطور بولس تطوره النهائى».

وتروى لنا «أعمال الرسل» (١١/١٩ – ٢٠): أن بعضاً من مجموعة «الهيلينستيين» الذين أخرجوا من القدس ارتحلوا حتى أنطاكيا، وبها «أعلنوا البشرى الطيبة عن السيد عيسى، متحدثين فيها أيضاً إلى الإغريق»، ونفهم من هذا أنهم اتجهوا أولا إلى اليهود – فلا نتصور أنهم قاموا بهذا النشاط فى بادئ الأمر خارج نطاق المعبد اليهودى – ثم تحدثوا بدعوتهم إلى المتلمذين على اليهود، ولا نشك فى أنهم كانوا كثرة بالمدينة. ونحن لا نزعم بأى حال من الأحوال أن اتباع عيسى الأول اتجهوا، بتدبير سابق وحسب خطة مرسومة. إلى هؤلاء المتلمذين على اليهود، غير أنهم لم يتجنبوهم. ولا شك أنهم وجدوا لديهم استعداداً وتقبلا للاقتناع بالدعوة الجديدة أكثر مما وجدوا لدى اليهود الخالصين، فضموهم إلى صفوفهم. وإننا لنميل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء «الإغريق» سرعان ما أصبحوا الغالبية، بل الغالبية العظمى فى كنيسة

(١) فى كتابه «الرسل» ص ٢٢٦.

أنطاكيا . ويبدو لنا أن صفة « المسيحيين » ، التى أطلقت حينئذ لأول مرة على أعضاء هذه الكنيسة من جانب المشركين ، تدل على أن عامة الناس فى المدينة ميزوا تمييزاً واضحاً بينهم وبين الطائفة اليهودية الأصيلة . ومن المرجح أيضا أنهم افترقوا سريعاً عن هذه الطائفة بتشكيلهم جماعات مستقلة ذاتيًّا كما افترقوا عنها بإخضاعهم التعاليم اليهودية الصحيحة لمقتضيات عقيدة الأمل المسيحية ، إذ وضعوا شخصية المسيح فى المقام الأول من دينهم .

ويكاد يكون من القضايا المسلم بها لدينا أن بيئة أنطاكيا هذه ، حيث كثر المؤمنون الذين علقوا بعيسى كل الآمال وإن لم يعرفوه ، تلك البيئة ساعدت على التطور السريع نحو « تأليه » المسيح ، أو هى حددت فكرة « تمجيده » ، إن بدت لنا كلمة « التأليه » هنا سابقة لأوانها . وكذلك نرى هؤلاء المؤمنين ينزعون فى تصورهم لشخصه ولرسالته إلى التخلص من كل خصائص عيسى اليهودية كمسيح ، ليرقوا به إلى مفهوم أعم وأوسع وأرفع ، ذلك المفهوم الذى يقترن بلقب « سيد » .

ولنلاحظ هنا أمراً هامًّا : ذلك أن الاثنى عشر لا شك قد تملكتهم الحيرة فى بدء دعوتهم ، عندما نظروا فى النصوص المقدسة وفى كتب الأحبار الحديثة ، فلم يجدوا كلمة واحدة تشير إلى إمكان قيام مسيح يعذب تعذيباً شائناً ، بل قرءوا على العكس من ذلك سطوراً تبعث فيهم الرعب : « لعن الله كل إنسان يشنق بالغابة ! » (كتاب « تثنية الاشتراع » ، ٢١ – ٢٣) . فكان عليهم إذن أن يفسروا لأنفسهم كيف دبر الله موت عيسى ضمن تدبيره لانتصار شعبه وحلول مملكته . وقد وجدوا إلى ذلك سبيلا معتمدين على « واقع » البعث ، وسائرين على المنطق التالى : « إذا كان الله قد بعث عيسى فلا يمكن أن يكون ذلك

إلا ليقوم بدور جلل وهل هناك له غير دور المسيح ؟ وكان الموت هو الشرط اللازم للبعث ، أى كان الطريق الذى أراده الله ليرتفع بعيسى من مستوى البشرية إلى « المجد المفروض له » . وهكذا أصبح عيسى هو المراد بمن أسماه النبي دانيال بـ « ابن الإنسان » الذى سوف يظهر وشيكاً على قباب السماء .

إلا أن مفهـوم « ابن الإنسان » غير موجود لدى بولس . لقد أبدله بمفهوم آخر – سوف نتحدث عنه فيما بعد – لا يمت بصلة إلى الجماعات المتصلة الأواصر باليهودية فهو إذن لم يؤسس مفهومه لشخص المسيح على ما أخذه من تلك الجماعات . (إن موت عيسى فى نظر الاثنى عشر ليس بالتضحية التكفيرية . أما عند بولس فنعم ؛ وفى عقيدته أن المسيح مات من أجل خطايا البشر. ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ « ابن الله » مكتفين بتعبير « خادم الله » . أما عند بولس ، فلقب « ابن الله » لقب كثير الاستعمال بالنسبة إلى عيسى) . إن بعض المفاهيم الجوهرية لدى المجتمع الأول نجدها إذن غريبة أو مجهولة أو غير ذات شأن لدى « الحوارى المرسل إلى المشركين » . أما المفاهيم التى عرفت له ، فهو لم يختلقها اختلاقاً ، وإن قام بتطويرها وتنميتها.ولا بد لنا من القول بأنه أخذها عن مصادر أخرى غير المجتمع المسيحى الذى أسسه أصحاب عيسى أنفسهم ؛ ولابد لنا من الاعتقاد بأنه وجد هذه المصادر فى مجتمع من المجتمعات الهيلينيستية ؛ وأغلب الظن أن هذا المجتمع كان مجتمع أنطاكيا .

وهناك لقب ذو مغزى لا تختص به رسائل بولس وحدها ، بل نجده أيضاً فى جميع نصوص العهد الجديد التى ترجع إلى الأصل الهيلينستى ، ذلك هو لقب « سيد » (خيريوس) الممنوح لعيسى . ويكفى أن نتصفح رسائل بولس

الكبرى لندرك أن « السيد » يهيمن على سائر أوجه الحياة فى المجتمعات التى اتصل بها صاحبنا . فكل كنيسة كانت تنتظم فى « جسد » ، « رأسه » « السيد » ؛ أوكانت إذا شئنا ، « مجموعة عبادة » « يحتل » « السيد » منها المركز . ولا أدل على ذلك من النص المعروف الوارد فى « الرسالة إلى الفيليبيين (٢ / ٩ وما يلى) والذى يقول : « لذلك رفعه الله وشرفه بالاسم الذى يعلو على كل اسم ، حتى يركع أمام هذا الاسم كل من فى السماوات والأرض والجحيم ، وحتى تعترف كل لغة بأن عيسى المسيح « سيد » وذلك من أجل مجد الله الآب » . ويبدو أن الاسم العبادى المقدس فى « العهد القديم » ، ذلك الاسم الذى يهيمن على الشعائر كلها فى معبد القدس الأكبر ، والذى لا شك أنه استخدم أيضاً لدى المسيحيين المرتبطين بالأصول اليهودية يبدو أن هذا الاسم قد تحول لصالح الـ « خيريوس » الجديد ؛ ذلك أن « يهوه » نفسه هو الذى كان يعلن قديماً : « سوف يركع الجميع أمامى » . والظاهر هنا أن « يهوه » قد تنازل عن سلطاته لصالح عيسى .

ولا نظن أن بولس قد اخترع اختراعاً هذا الاسم المحمل بكل تلك المعانى وفرضه على الناس إذ يبدو من أبعاد وعمق الظاهرة أنها لم تقم على إرادة رجل واحد ، بل إن فى ملامحها عناصر تخرج عن مثل هذه الإرادة وتفترض تمهيداً لفترة طويلة فى ضمير هؤلاء الذين مكنوا لها وثبتوا أركانها . فلو ضربنا هنا عرض الحائط بالنظريات المتهافتة التى نشأت للتدليل على أن لقب « خيريوس » هذا قد يكون يهودى الأصل لتوصلنا إلى ما يلى : تلك هى الكلمة نفسها التى كان يستخدمها العبيد اليونانيون لبيان ولائهم لأصحابهم ، وهى فى الواقع توضح العلاقة بين « عبيد المسيح » والمسيح نفسه (نظر : « الرسالة الأولى إلى أهل

كورينثيا ، ٢٢/٧) . ثم إنها أيضاً لقب غريب عن الآلهة التقليديين ، ونعنى بذلك : الآلهة ذوى الأصل اليونانى المحقق ، أو آلهة الرومان إذا وضعنا موضع الاعتبار المرادف اللاتينى للكلمة ، وهو « دومينوس » . ولكنها كانت تطلق خاصة على « الآلهة المنقذين » فى آسيا الصغرى ومصر والشام عند الحديث عنهم باليونانية ؛ ومن هؤلاء الآلهة تحول اللقب أيضاً إلى الملوك والأمراء .

لقد نشأت المجتمعات « الهيلينستية » الأولى ونمت فى البيئة السورية . وفى ربوع هذا المهد الأول وجدت انتشاراً واسعاً للقب « خيريوس » ولصور العبادات القائمة عليه . وفيه ثبتت تلك المجتمعات « الهيلينستية » الفتية باعتبارها مجتمعات لعبادة المسيح ، أو إذا شئنا – قد انتظمت حول هذه العبادة ، مدفوعة بنزعتها الرامية ، فيما يشبه اللاشعور ، إلى الابتعاد عن اليهودية ، وبما وجدته فى خروجها عن فلسطين من سبيل للتحلل من تشدد يهود الوطن الأم فى تعاليم التوراة الخاصة بالتوحيد . وفى سوريا عرفت الاسم الذى يعبر فى طقوسها الدينية عن مركز المسيح المهيمن . وبدا لها بعد ذلك من الأمور أن تطلق ذلك اللقب المعبر لقب « السيد » الشائع الاستخدام من حولها ، على الشخصية التى لم يكن المشركون ليعرفوها إلا بأنها « بطل الطقوس الدينية » .

(وإن ما نسميه هنا بالمسيحية ، ونكاد فى هذه التسمية نسبق سياق التاريخ ، قد اتخذ إذن بين رحاب التقوى الهيلينستية ، صورة « إيمان بالسيد » و « تعبد للسيد » ؛ فى حين كان أصحاب عيسى من أهل الجليل لا يزالون على « الإيمان بعيسى وبما قاله » وعلى اتصال دائم بالمعبد اليهودى الأكبر واحترام لشعائره) .

ويمكن القول بأن المسيحية لن تمر بالنسبة إلى مستقبل أمرها بتطور يبلغ من الأهمية مثل ما بلغه ذلك التطور الذى نقف عنده الآن . إن مفهوم « ابن الإنسان » عند الذين اتبعوا عيسى من اليهود الفلسطينيين ينتمى فيما نرى ، إلى الاتجاهات اليهودية فى تصوير يوم القيامة ؛ ونعنى بذلك : أنه لا يجد مكانه الحق إلا ضمن أحداث نهاية العالم التى قال بها اليهود ، والتى لم يكن ليتعلق بها إلا اليهود . إنه إذن وبالذات مفهوم « عظمة أخروية » يفرض على موضوعه البقاء فى السماوات حتى حلول مملكة الله الموعودة . أما « السيد » لدى المجتمع الهيلينستى فهو على العكس من ذلك يظهر وكأنه – سواء فى الشعائر أو فى العبادة – مفهوم « عظمة حالية حاضرة » ، فالمؤمنون الذين يجتمعون باسم « السيد » يحسون بحضرته ، أى بأنه قائم بينهم . تماماً كما كان يشعر أتباع الديانات ذات « الأسرار » بالحلول الإلهى فى أثناء الاحتفالات السرية التى يشتركون فيها . فإذا ما وضعنا جنبا إلى جنب مفهوم « ابن الإنسان » ومفهوم « السيد » وجدنا بينهما اختلافات تبلغ حد التعارض . وقد فاز بالمستقبل ، بطبيعة الحال ، المفهوم الهيلينستى : لأنه نابع – ولا شك فى ذلك – من أعماق الحياة الدينية للبيئة التى أنشأته . أما المفهوم الثانى ، وهو الأقدم منهما ، فسوف يظل جامداً بين طيات النصوص ، بل سوف يتقلص شيئاً فشيئاً حتى يصبح تعبيراً من تلك التعبيرات الغامضة التى لا حياة فيها والتى لا تعنى شيئاً بالنسبة إلى أهل العقيدة من غير اليهود . وتصوير بولس للقيامة والعالم الآخر يعتمد فى جوهره على تلك القاعدة المزدوجة من « الإيمان بالسيد » و « عبادة السيد عيسى » ، ووصوله إلى المفاهيم المتعلقة بها يعدّ الخطوة الأساسية فى تكوينه المسيحى . وسبقت هذه المفاهيم صاحبنا إلى الوجود وقد استقاها من بيئة كانت

أقرب إلى إدراكه - بحكم نشأته اليونانية - من مجتمع فلسطين اليهودى - المسيحى .

ولكننا نعرف أن فكرة الإله ، أو « السيد » الإلهى ، الذى يموت ثم يبعث « من أجل نجاة أتباعه » كانت شائعة فى البيئة السورية . ولنا أن نتساءل : ألم تكن هذه الفكرة قد فرضت نفسها على المجتمعات الهيلينستية فى تفسير وتأويل موت السيد عيسى ، وذلك قبل مجيء بولس ؟ أو بعبارة أخرى : ألا يدين بولس لمعلميه الأول من المسيحيين بالفرض الاساسى فى نظريته الخاصة بالنجاة ، وهو : لقد مات المسيح من أجلنا كما قدر له فى النصوص المقدسة ؟ ليس فى الإمكان فى عصرنا الحاضر ، أن نقيم الدليل على هذا ؛ ولكننا نجد مجموعة كبيرة من الاعتبارات ترجحه وتجعل منه أمراً طبيعيًّا . ولن نتحدث فى هذا المجال إلا عن واحد فحسب من تلك الاعتبارات . هو : أن « الأسرار » كانت توحى إيحاء قويًّا بأن موت المسيح وبعثه لا يرتبطان فقط بفكرة الرمز إلى موت المؤمنين وبعثهم وبفكرة رسم « صورة معينة » لهذه الأمور ، ولكنهما يرتبطان أيضاً بمفهوم المثال والضمان لهؤلاء المؤمنين كانت هذه « الأسرار » تدفع إلى الاعتقاد بأن نجاة المؤمن خاضعة لتوحده مع المسيح المنقذ ، وحدة تتم حسب طقوس فعالة . وهذه الطقوس عند بولس تتمثل فى « التعميد » الذى يرمز إلى الموت والبعث فى المسيح ، ثم فى « القربان » وهو مأدبة الوحدة على مائدة « السيد » وقد أخذ المجتمع الهيلينستى شعائر التعميد المطهر من عبادات المتتلمذين على اليهود ، كما أخذ عن أصحاب عيسى من أهل الجليل طقوس الخبز الذى يقسم بين الجماعة . ومن العسير علينا أن نتصور أنه لم يدخل على هاتين العمليتين ، منذ البداية ، معانى صوفية تتفق وما توحى به نفس « الأسرار » التى يبدو جليًّا أن هذا المجتمع

قد استقى منها مفهومه لـ « السيد – عيسى – المنقذ » . وإن بولس ليستخدم كل هذه الأفكار وكأنها كانت طبيعية مواتية ؛ وهو يلقى بالتعبيرات الصوفية المتعلقة بها بصورة تلقائية بسيطة تدعو إلى الإيقان بأنه لا يتحدث إلا عن مفاهيم عرفتها من قبل تلك المجتمعات التى أنصتت إليه ، وبأنه ليس المخترع لذلك الرصيد من الأفكار الذى يستغله ، وإنما اقتصر دوره على التعمق فى بحثه وعلى إنمائه . وإننا ، على أى حال ، لو اكتفينا بالنص الحرفى لبعض ما قاله ، لكان ذلك أقوى دليل على ما نميل إليه من رأى : « لقد علمتكم . . مما علمت . . أن المسيح مات من أجل خطايانا ، حسب ما قدر له فى النصوص المقدسة . . » (« الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ٣/١٥) .

(جـ)

إن اقتنعنا بترجيح الرأى الذى فصلناه آنفاً ، والذى يقول بأن بولس قد تلقى أسس عقيدته – وهى العقيدة التى تعارفنا على تسميتها بـ « البولونية » – عن مجتمع من المجتمعات الهلينستية (مجتمع أنطاكيا فى غالب الظن) – إن اقتنعنا بترجيح هذا الرأى ، فإن تحول صاحبنا ، وهو اليهودى الفريسى الأصيل ، إلى المسيحية ، هذا التحول سوف يبدو لنا حينئذ أقرب إلى المنطق مما لو فسرنا الأمر بتلك المزاعم الهزيلة التى دعا إليها يهود القدس المسيحيون ، والتى كرهها هو بادئ ذى بدء وهاجمها ، ثم جعلناه يعتنقها فجأة ودون تمهيد . فإذا ما تقرر – كما نظن أنه الواقع – أن بولس وجد المفاهيم والشعائر الأساسية التى ذكرناها فى مجتمع مسيحى هيلينستى ؛ وإذا تقرر من ناحية أخرى – كما نظنه أيضاً أنه الواقع – أنه ربى حقيقة ، لا بين أحضان اليهودية الفلسطينية ، ولكن فى ربوع

المهجر بما امتاز به – سواء فى طرسوس أو فى أنطاكيا – من مرونة ونزعات متفاوتة القوة نحو التأليف بين الأديان ، وإذا تبينا أنه ، منذ طفولته الأولى ، قد أحاط به من كل جانب إيمان الناس بإله يموت ويبعث ، فانغمس فى هذا الإيمان حتى أشرب به دون أن يشعر بذلك ، بل أشرب به وهو فى غمار مدافعته له باعتباره تصورات وثنية ممقوتة ، ثم إذا قدرنا أن عقيدته فى اليوم الآخر وفى حلول مملكة الله كانت تتطور – ودون أدنى شعور منه أيضاً – نحو العالمية ، بل – ومن يدرى ؟ – نحو الوقوف بالتوازى أمام « الأمل » الذى عبرت عنه « الأسرار » – فى صورة قد تقوى أو تضعف – كالحق أمام الباطل ، وذلك بفعل التأثيرات الخارجية وكرد فعل عليها ؛ وإذا انتهينا أخيراً إلى أنه – تحت تأثير البيئة المحيطة به والثقافة العامة التى تلقاها – أصبح لا ينظر إلى العقائد والشعائر الوطنية على أنها جميعها نسيج هش هزيل من الأخطاء . . بعد كل هذا لابد لنا من الاعتراف بأننا وصلنا أو نكاد إلى التفسير الطبيعى ، المنطقى المرضى ، لتحوله إلى المسيحية : فلقد تحول إليها منذ اليوم الذى اقتنع فيه بأن المسيحيين على حق إذ يرجعون إلى عيسى الناصرى شرف إتمام رسالة « الخلاص » ، تلك الرسالة التى كاد المشركون أن يلمحوا بعض جوانبها ، ولكن أعماهم عن إدراكها غشاء فظنوها من شياطينهم ، تلك الرسالة أيضاً التى وعدت بها إسرائيل منذ زمن بعيد فى النصوص المقدسة . وبعبارة أخرى : فقد تم هذا التحول نتيجة التلاقى المفاجئ والإدراك الخاطف المتعدد الموضوعات لمفاهيم روحية وفكرية – لم تكن بالغريبة ولا بالسطحية – اجتمعت مع العقيدة المسيحية فى صورتها التى قدمها بها الهيلينستيون والتى كانت قريبة إلى روح يهود العالم اليونانى . وراح صاحبنا بعد ذلك يعمل ، بما أوتى من علم بأصول الدين اليهودى ، على تطوير وتنظيم

« ما تلقاه » ، وكان ذلك أمراً طبيعيًّا بالنسبة إليه .

ولكن السؤال الآن هو : كيف تم مثل هذا الانقلاب ، الذى غيّر تماماً – على الأقل فى الظاهر – من اتجاهاته الضميرية ؟ لقد رأى فيه هو آثار معجزة عدّها « فاصلة » لفترتين من حياته : الأولى « قبل المسيحية » ، وكانت ظلاماً ، والثانية « بعد المسيحية » وكانت نوراً كلها . إن المسيح تحدث إليه على طريق دمشق ، وأخبره صراحة بما كان عليه أن يفعله .لذلك دخل فى المسيحية كما كان الناس يدخلون فى الديانات ذات « الأسرار » ، لا نتيجة لتدبير فكرى ولسلسلة من البراهين المنطقية ، ولكن استجابة لدافع روحى لا يقهر .

ولا مجال هناك للشك فى أن بولس قد آمن بالحقيقة الملموسة المادية لمعجزة التحول هذه . ولكن حديثه عنها وما ترويه « أعمال الرسل » بشأنها لا يسمحان ، للأسف ، بأن نصل منها إلى الحد الذى يتيح لنا تحليل الظاهرة بصورة مرضية كل الرضى . وليس معنى هذا أنها ظاهرة بالغة الغموض فى حد ذاتها ، فتاريخ الأديان وعلى الأخص منها أديان العالم اليونانى – الرومانى يعرض علينا « حالات » عديدة تشابهها بعض المشابهة أو كثيرها . ومع التحفظ إذن بشأن رأينا فيما نجهله من الأمر ، أى فى السبب المباشر الذى أحدث الصدام الحاسم فى أعماق ضمير بولس ، نستطيع الجزم – معتمدين على نظريات علم النفس الحديث – بأن نتيجة هذا الصدام كان قد مهد لها بتفاعل داخلى يغلب على الظن أنه استغرق وقتاً طويلا . وكان العنصران المشتركان فى هذا التفاعل : أولا – خصائص شخصية الداعية نفسه ، المتقبلة ، بل النازعة ، إلى الهزات والتهيؤات الصوفية . ثانياً – تلك التأثيرات التى تراكمت – إذا سمح لنا باستخدام مثل هذا التعبير – فى أعماق اللاشعور لديه شيئاً فشيئاً : من تأثيرات

« أسرار » طرسوس وأنطاكيا التى عودته على فكرة « المنقذ » إلى تأثيرات أساتذته من اليهود الذين جعلوه يتعلق بالأمل فى حلول مملكة الله ، ثم التأثيرات التى تلقاها فى بيئة طفولته ، فأنشأته على عدم احتقار كل ما يأتى من الوثنيين ورفضه لأول وهلة . وعلينا بعد ذلك أن نذكر ، على الأخص ، ذلك القلق الدينى العميق الجذور ، الذى نلمحه من خلال بعض السطور المشهورة من « الرسالة إلى أهل روما » (٧/٧ ، وما يلى) . ومن الخطأ ولا شك أن نعطى هذا النص من المعانى أكثر مما يحتمل ، فهو يعبر لنا عن حالة بولس النفسية قبل تحوله إلى المسيحية كما ارتآها هو بعد هذا التحول ، يعبر عنها فى لغة المؤمن بالمسيحية . إلا أنه من اليسير علينا ، برغم ذلك أن نستخلص منه مفهوماً عامًّا هو : أن داعية المسيحية المستقبل رأى نفسه ، فى ذلك الوقت ، غير قادر على مقاومة الخطايا التى تبرزها الشريعة اليهودية – حسب تفسيرات العلماء الفريسيين – فى كل مكان من الأرض ، وفى كل جانب من جوانب الحياة . وتلك بالذات كانت ، فى هذا الزمن ، الحالة النفسية التى تدفع بأهلها إلى البحث فى غير ما هوادة عن « المنقذ » ، عن « الوسيط الإلهى » عن « الهادى » المنزه من الخطأ إلى سبل الحق والحياة .

كان بولس إذن يحس بأنه ابتعد عن الله ، وبأن روحه أصبحت فى « حالة » إثم وافتقار إلى الكمال . وتلك حالة غريبة على نفسية « الربانى » الحق الذى يجد فى الإيمان « بهجة ويقيناً » ، إلا أن بولس كان فريسيًّا « من أهل المهجر اليهودى » . ويجب تذكر هذه الملاحظة دائماً عند تفسير انفعالات شخصيته . وكان من الطبيعى أن يستثير انتباهه بقوة ما وجده لدى المسيحيين من مظاهر السعادة فى اليقين ، بالمقارنة مع حالته النفسية الخاصة . فإذا ما اتضح لنا –

ونحن نؤمن بذلك – أنه لم يواجه فقط بآمال أهل الجليل الساذجة ، بل وجد نفسه أمام صورة للمسيحية قد صبغت إلى درجة ما بالروح اليونانية ، فحملت موت عيسى معنى التكفير عن خطايا البشر « حسب ما قدر فى النصوص المقدسة » إذا ما اتضح لنا ذلك ، أصبح من اليسير علينا تصور افتتانه بهذه المفاهيم وبالدعائم التى تستند إليها ، ثم إحساسه اللا شعورى الغامض فى بادئ الأمر بأن فيما يلمسه منها الحل الأمثل للمشكلة التى تحاور نفسه منذ أمد بعيد .

ولا نشك فى أن هذا التفاعل التمهيدى قد تم ، فى نطاق عقله الباطن ، فى بطء وصمت ، وأن كل عنصر من عناصر الانفعال النهائى المستقبل نضج – إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير – فى عزلة عن الآخرين . أما الانفعال نفسه ، فقد وقع فى صورة لمع خاطفة من التصوف ، يوحى إلهام مفاجئ وليس هذا التحول العنيف لجميع مقدرات الكيان بالأمر الغريب على كبار الصوفية . ولنكتفِ هنا بمثلين هما : رؤيا فرانسوا داسيز على طريق سبوليت ، وظهور العذراء للقديس إيجناس دى لويولا . ولابد لنا من رسم الظاهرتين بنفس خطوط « معجزة طريق دمشق » ، وإرجاعها إلى أسباب قد تتفاوت فى درجة تشابهها ولكنها تؤدى إلى عواقب متماثلة .

وخلاصة حديثنا إذن أن بولس كان موضوع نوعين من التأثيرات الممهدة للأزمة التى جعلت منه مسيحيًا بالقوة وداعية للمسيحية بالإرادة . ويمكن وصف أحدهما بأنه كان سلبيًا ، ووصف الآخر بالإيجابية . فأما « الأول » من نوعى التأثيرات الممهدة فهو يقوم ، فى تحليله النهائى على عاملين ، واحد منهما هو فكرة « المنقذ » التى لم يتعلق بها بولس فى البداية وإن كانت ملازمة لذكريات طفولته وقريبة ، فى بعض جوانبها ، من الأمل فى حلول مملكة الله

الذى يراوده باعتباره يهوديًّا من أهل المهجر. والعامل الآخر هو: تجربته الفريسية للشريعة اليهودية، وما خلفته فيه هذه التجربة من رهبة وقلق أمام الخطايا المحيطة به من كل جانب والتى لم يكن ليقدر على تجنبها. أما «ثانى» نوعى التأثيرات الممهدة فركيزته مظاهر اليقين المسيحى «الهيلينى» الذى يعتمد على تحرر الإنسان من الخطيئة ثم على الخلاص بواسطة «السيد عيسى». ويمكن إذن فهم تحول بولس على أنه تفجر مفاجئ لما تراكم من هذه التأثيرات المختلفة. وبذلك تصبح مراحل إتمام هذا التحول واضحة لنا كل الوضوح، وإن ظل سببه الحقيق المباشر فى طىّ المجهول.

وكان من منطق التفاعل أيضاً أن يقوم بولس، وقد تحدثنا عن خصائص شخصيته، بمثل ما قام به فرانسوا داسيز وإيجناس دى لويولا؛ أى كان من المنطق أن لا يكتفى بالاعتناق البسيط للمسيحية وبالانقلاب من مضطهد لها إلى داعية. ولنؤكد هنا أن رؤيا طريق دمشق لم تغير من ذات بولس، بل دفعته فحسب، إلى تطبيق مبادئه القديمة فى اتجاه جديد. لقد ضم عيسى إلى مجال نشاطه وتبناه فى عنف، فراح يكمل معلوماته عنه. ولعله بدأ بدراسته هذه فى دمشق أولا، ولكننا نستطيع الجزم بأنه أتمها فى أنطاكيا بعد ذلك. وراح يعمل فكره وخياله ويطبق أساليبه، التى اعتادها كيهودى وفريسى من أهل المهجر، على «ما تلقاه هناك». وهو، حتى فى دفاعه عن عقيدته الجديدة وهجومه على الشريعة اليهودية، قد بقى يهوديًّا كما كان من قبل. وهذا ما يعبر عنه رينان بحق عندما يقول: إن بولس لم يغير سوى موضوع تعصبه[1].

(١) فى كتاب «الحواريون»، ص ١٨٣. انظر كذلك كتاب دايسمان، «بولس»، المطبوع بتوينجن عام ١٩١١، ص ٦٧ وما يليها.

ولم يكن بولس حقًا بالرجل الذى يكتفى بأن « يتلقى » الأمور فى سلبية . وليس هناك من شك فى أن « الإنجيل » الذى قال به مدين له بالكثير من الإلهامات الخاصة ومن الإيحاءات التى نبعت عن طريقة تأديته لرسالته . وسوف نوضح ذلك فيما بعد . ومع ذلك قد « تلقى » أشياء يعترف بها ويقرها . وإن ما تلقاه لهو رصيد عقيدته وإيمانه ، تلقاه من هؤلاء الذين صاغوه – ولو بغير إدراك منهم للأمر – فى الصورة التى استطاعت أن تؤثر فيه وتسيطر عليه ، وهو ما سوف يعمل بدوره فى نشاط لا يقهر على التبشير به ونشره ، مع الإفاضة فى شرحه : دين بكل معنى الكلمة ، دين « خلاص » ، دين عالمى .